نـــوح عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم:١٠)

صدق الله العظيم

مضت سنوات وسنوات على وفاة آدم عليه السلام.. نسى الناس خلالها رحيق السماء، ودعوة آدم بالتوحيد، فعبد الناس الأصنام، واتخذوها آلهة من دون الله، وأطلقوا عليها هذه الأسماء: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا.. وكانت هذه أسماء لأناس صالحين من نسل آدم عليه السلام، وكان صلاحهم حديث الناس الذى تناقله جيل عن جيل، إلا أنه مع مرور الزمان، أقام لهم الناس تماثيل، وسرعان ما تحولت هذه التماثيل إلى آلهة تعبد من دون الله فقد نسى الناس أن هذه التماثيل ترمز إلى هؤلاء الناس الصالحين من ذرية آدم.. نسوا الأصل، وتذكروا هذه الأصنام واحترام الناس لها، ثم سرعان ما عبدوها عندما سول لهم الشيطان ذلك.

وجاء نوح عليه السلام، فوجد قومه يعبدون هذه الأصنام، وأوحى الله إليه أن ينبذوا هذه العبادات التى لا معنى لها، ويعودون إلى عبادة الله الواحد الأحد.. ولكنهم أصموا آذانهم وتذرعوا بأنهم وجدوا آباءهم يعبدون هذه الأصنام، وأنهم لا يخالفون ما وجدوا عليه الآباء والأجداد.

كان نوح عليه السلام، قوى الحجة، فصيح اللسان، حاول إقناعهم بكل الوسائل ليكون إيمانهم بالله وحده دون سواه، واقتنع

بعض الفقراء والضعفاء بهذه الدعوة وآمنوا بها، ورأى الأغنياء والأقوياء ذلك، فأخذتهم العزة بالأثم، وحاولوا إقناع نوح بأن يبعد هؤلاء الضعفاء والفقراء من حوله ولكنه كان يقنعهم بأن الناس سواسية فى الإيمان بالله، وأن المؤمن الفقير أفضل عند الله من الغنى الجاهل، وضاقوا ذرعا بمنطقه وقالوا:

﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

ومرة أخرى يحدثهم نوح عليه السلام بأن يذعنوا لنداء الإيمان.. وأنه مجرد بشر، لا يملك لهم شيئا.. لا ضرا ولا نفعا إلا بأمر الله.. إنه بشر يوحى إليه من قبل الله.

كانت الدعوة رغم قوة حجة نوح عليه السلام تسير بين الناس ببطء فلم يؤمن معه إلا قليل من الناس، رغم أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما.. وأوحى إليه الله تعالى:

﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وعندما أيقن نوح عليه السلام أنه يدعو أناسا قد وضعوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا دعوة الحق، وأغمضوا أعينهم عن النور الذى يدعوهم إليه، اتجه إلى الله بكل كيانه.

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وأوحى إليه سبحانه وتعالى أن يصنع سفينة، تمهيدا لتحمل المؤمنين عندما يأتى أمر الله بإغراق الذين أعرضوا عن الإيمان، وساروا وراء أهوائهم.

ولكن قوم نوح كانوا يسخرون من نبى الله، وهم يرونه يصنع هذه السفينة، وتزداد سخريتهم منه وهم يحدثوه عن هذه السفينة التى يصنعها فى مكان ليس فيه بحار ولا أنهار، وكان يرد عليهم:

﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

أين كانت امرأة نوح من هذه الدعوة التى كان ينادى بها زوجها نوح عليه السلام؟

لا أحد يعرف اسمها لأن القرآن الكريم لم يذكر اسمها.. وكذلك التوراة لم تذكر اسمها.. لقد ذكرت فى التوراة والقرآن بـ«امرأة نوح» وكانت امرأة نوح تؤمن بما آمن به قومها.. من تقديس الأصنام، ولم تأبه بدعوة زوجها، ووقفت موقف الرفض من الدعوة.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ولم يُنكب نوح في زوجته التى أعرضت عن نداء الإيمان فقط بل جرف الكفر ابنه «كنعان» كما جرف أمه!

وجاء وعد الله.. وحمل نوح على سفينته من آمن به، كما حمل من الحيوانات والطيور، والوحوش، من كل زوجين اثنين.. وجاء الأمر الإلهى:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وتهيأت السفينة أن تطفوا على سطح الماء، عندما تساقطت الأمطار الشديدة الغزارة من السماء، وتفجرت المياه من الأرض، وارتفعت المياه عن سطح الأرض، ثم أصبحت هذه المياه تندفع بسرعة مذهلة وهى تغطى وجه الأرض وترتفع أمواجها كالجبال.. وبين هذه الرعود والأمطار.. ومن خلال هذا المشهد الرهيب جرفت المياه فيما جرفت من الكفار زوجته التى لم تؤمن بما جاء به من وحى الله.. أثناء هذا المشهد الرهيب شاهد نبى الله ابنه كنعان يغالب الأمواج، ويحاول أن يصل إلى جبل يحتمى به من هول هذه الأمواج العاتية..

وخفق قلب نوح كأب لابنه، لقد تمنى أن يؤمن ابنه وينجو ويصعد إلى السفينة معه، ولكن الابن قد أعماه كفره..

سمع نداء أبيه له حين قال:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٣].

وأجاب الابن:

﴿سآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].

إن الكفر قد أعمى بصره وبصيرته.. فرغم مشاهدته هذه المعجزة.. وأن السماء تسقط هذه الأمطار بكل هذه الغزارة، والأرض تندفع من أعماقها المياه، والمياه تغمر الأرض، وترتفع باندفاع مروع فى كل الجهات، إلا أن الابن ظل على كفره وعناده.

نادى نوح ابنه مرة ثانية:

﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وشاهد نوح مشهدا عجيبا.. وسط الرعود وهطول الأمطار.. حال الموج بينه وبين ابنه، واتجه إلى ربه لعله يكتب له النجاة، فقد وعد الله نوحا بأن ينجيه وأهله، وأهله هم الذين آمنوا بدعوة التوحيد.. ولكن ابنه بكفره لم يعد من أهله.. وهكذا كتب على ابنه كنعان الغرق، كما غرقت امرأته..

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٦].

وأيقن نوح عليه السلام بقدر الله، واتجه إلى الله بكل كيانه:

﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود : ٤٧].

وغرق الذين كفروا.. وتحقق انتقام السماء، وكان لابد لهذه المياه الهائلة أن تنحسر، وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى، كما كانت عليه قبل هذا الطوفان، وجاء الأمر الإلهى.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

هبط نوح عليه السلام إلى الأرض.. وهبطت الحيوانات والطيور والوحوش التى كانت معه فى السفينة. لتبدأ الحياة من جديد.

حياة يعبد فيها الناس خالقهم العظيم، بعد أن خلت الدنيا بعد الطوفان من الأوثان التى غرقت مع الكافرين، وانطلقت الطيور فى سماء الله العريضة، وكأنها وهى ترفرف بأجنحتها فى الفضاء الفسيح، تسبح الله وتشكره على الإيمان الذى يشع فى الوجود. وأخذت الأرض تجف مع مرور الوقت.. وأخذ الناس يزرعون الأرض وينتظرون الحصاد.

لقد لبث نوح عليه السلام على الأرض ألف سنة إلا خمسين عاما . !

ومن الطريف أن عمر نوح عليه السلام كان موضع جدل، وتساءل الناس . . هل يمكن أن يعيش الإنسان على الأرض هذا الزمن الطويل؟! ، أم أن السنة لم تكن تطلق على السنة التى نعرفها الآن، بأيامها المحددة المعروفة! .

هل عاش ٩٥٠ عاما أم ٩٥٠ شهراً؟! ، على أساس أن كل هلال يظهر مع أول كل شهر كان يعتبر سنة، أم أنه عاش ٩٥٠ عاما بالفعل؟

لا شك أنه عاش ألف سنة إلا خمسين عاما كما يقول القرآن الكريم، لأن القرآن نزل بلغة العرب، وحدث الناس بلغتهم العربية، ومفاهيمها، ومفهوم السنة عند العرب هو السنة، وليس الشهر .

أما التعجب حول هذه السن الطويلة التى عاشها نبى الله نوح عليه السلام، ربما يرجع إلى التعجب الذى اعترى الشاعر الفيلسوف أبا العلاء المعرى عندما قال فى ذلك :

ورووا للمعمـــرين أمـــورا

لست أدرى ما هن فى المشهور

أتراهم فيما نقضى من الأيام

عـددا ســنينهم بالشـــهور

كلما لاح للعيـــون هـــــلال

كان عاما لديهموا فى الدهـور

هكذا كان ينبغى وإلا فإن العقل

يثنى فى حـــــالة المبهـــور!!

والغريب أن قصة الطوفان هذه قد تناولتها أساطير العالم القديم كله، فى أمريكا الجنوبية، وفى بابل، وفى مصر القديمة، وعند الأغريق. وكل هذه الأساطير تتحدث عن طوفان هائل غمر الكون، وقضى على العمران، ولم ينج منه إلا من ركب السفينة.

حتى أننا نرى «ماكس موللر» يترجم قصة عن السنسكريتية ملخصها أن متعبدا ذهب إلى النهر للاستحمام، فخرجت له سمكة تطلب منه أن ينقذها حتى تنقذه!

أخبرته هذه السمكة أن طوفانا هائلا سوف يغمر العالم، ويغرق المخلوقات، وهذا يعنى أن القيامة سوف تقوم، ونصحته أن يبنى سفينة، حتى لا يغرق وستكون هى دليله للنجاة!

وعند الإغريق أسطورة تقول أنه حدث طوفاناً بلغ السماء، وأن هذا الطوفان كان فى عهد أوجيج ملك أتيكا الأول، واستطاع الملك أن يتخذ لنفسه ولحاشيته سفينة تمكن عن طريقها من النجاة!

وهذه الأساطير التى تحدثت عن الطوفان الذى أغرق الكائنات ولم ينج منه إلا من ركب السفينة، إن دلت على شىء، فإنما تدل

على أن التراث الإنسانى تناقل ما حدث فى عهد نوح عليه السلام، وسجل ذلك ذاكرة التراث الشعبى، بعد أن حرف هذا التراث من ناحية التناول بفعل مرور السنين..

وكل هذه الأساطير تشير إلى الحقيقة التى حدثت، وسجلها القرآن الكريم، بأسلوبه المعجز، لتبقى العبرة والعظة، بأن الحق لابد أن ينتصر مهما كانت أشواك الطريق، ودعوات السماء لابد أن تشق طريقها إلى القلوب والعقول، مهما وقف ضدها المتعجرفون والطغاة.

وقد انتصرت دعوة نوح، وعاش أتباعه بعد الطوفان يملأهم اليقين بمبدع السماوات والأرض، وكل الوجود.

لقد انتشر الناس بعد الطوفان بحثا عن الرزق، وعمارة الأرض.. فاتجهوا إلى الأماكن التى يمكن زراعتها عند الأنهار.. كالنيل، ودجلة والفرات، والسند، وغيرها من الأراضى التى يمكن زراعتها، والعيش على ضفافها.

وامتلأت الحياة بالناس الذين يعمرون الحياة، وشقت البشرية طريقها نحو العمل والانتاج، وعبادة الخالق الأعظم.

ومع مرور السنين، والانشغال بالدنيا عمن سواها، نسوا من جديد ما كان ينادى به نبى الله نوح عليه السلام.. وغشيت الحياة ظلمات الجهل والخرافة.. فابتعدوا عن منهج الله، واتخذوا من دون

الله أربابا.. وأضلهم الشيطان وأخذهم إلى عالم الغواية والضلال والبهتان، واختفت شمس الحقيقة ليتخبط الناس فى دياجير الكفر والغباء.. وكان لابد أن يبعث الله إليهم رسولا منهم، حتى يعيد الناس إلى منهج الله.. وإلى طريق الله الصحيح.. وكانت دعوة هود عليه السلام.

* * *